الشيخ خاطر واجتمع في دير بسيم برجلٍ من جماعة اخيهِ ابي نادر واستخبرهُ عن حال البلاد وسألهُ عن والي صفد فاجابهُ انهُ الامير يونس كأنهُ لم يعلم انهُ الامير عليّ او اخطأ الناقل في الرواية وانهُ استناب عليها الشيخ ابا نادر ومن ثمَّ ذهب ابو خاطر الى دير القمر واخبر الامير يونس فركب ومعهُ كثيرون من عظماء الشوف الى الدامور واعطوا العلامة فاقترب مركب الامير من البر وشرع الناس يذهبون اليهِ للسلام على فخر الدين والتمسوا منهُ النزول الى البر فابى الربان ذلك كأنهُ كان محظوراً عليهِ ان يسمح بهِ ولما قضى الامير من الاجتماع وطرهُ سافر فمرَّ على مالطة فرحب بهِ واليها واهلوها ترحابًا عظيماً وحيوهُ باطلاق المدافع ثم عاد الى بلدهِ في ايطاليا

جرجي بني

عمران دمشق

تمهيد

التأليف في هذه الديار ضربٌ من شاقّ الأعمال لا يُعانيهِ الاَّ من يُدانيهِ لضعف مادة العلم وكساد بضاعة الفضيلة وتباين المشارب والمذاهب وشدَّة الضغط والتعسُّف بحيث يضطر في الغالب من يجرأ عليهِ الى التقيّة يستعملها فيما يكتب على حين أنهُ لا تقيّة في العلم ولا خشية من التصريح بالحق الاَّ في اقطار يُحظر فيها كلُّ شيء خلا التمويه والتدليس

لي صديق من حملة العلم اوعز اليَّ ان أُنشئ رسالة أُلمُّ فيها بما تقلّب على دمشق الفيحاء من كُثر وقُلّ وعلم وجهل فامتثلتُ امرهُ وانا أُحاذر ان تنطبق عليَّ بالقول والفعل جملةٌ فاهَ بها احد كتاب الفرنسيس وقد أَلف كتاباً وهو في الخامسة والعشرين من عمرهِ "إن هذا السنَّ يستسهل العقل فيهِ حلَّ المشكلات ويأخذ الاشياء بظواهرها ويحلُّ الخيال منهُ محلَّ النقد والتنقيب ويعتقد المرء في الامور بغير قيد وهو سنٌّ لو انصف اهلوهُ ما كتبوا ولا ألَّفوا"

واذ شرعتُ في العمل تيسَّر لي رغم المصاعب من مخطوط الأسفار ومطبوعها ما لم اتوقع الحصول عليهِ فاستأنستُ ببعض واقتبست من آخر ومما طالعتهُ من المخطوط جانب من تاريخ دمشق لابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ والضوء اللامع لاهل القرن التاسع للسخاوي المتوفى سنة ٩٠٢ والكواكب السائرة في اعيان المئة العاشرة للنجم الغزي المتوفى سنة ١٠٦١ ومختصر الدارس في تواريخ المدارس للعلوي والاصل للنُعَيْمي المتوفى سنة ٩٢٧ ومحاسن الشام للبدري وحوادث دمشق اليومية من سنة ١١٥٤ الى سنة ١١٧٦ لابن بدير وكتاب ثمار المقاصد في ذكر

المساجد ليوسف بن عبد الهادي كتبهُ سنة ٨٨٣ وتاريخ في ١٤٠ صحيفة منصَّفة القطع ناقص كرَّاسًا من الاول ارَّخ فيهِ مؤلفهُ منذ ابتداء العالم الى زمن قايتباي الجركسي سنة ٨٧٢ وعليهِ حواشٍ بقلم محمد الاكمل بن مفلح المتوفى سنة ١٠١١ واظنهُ مختصرًا من تاريخ ابن عساكر مع زيادة في آخرهِ

وطالعت من المطبوع طرفًا من تاريخ الطبري المتوفى سنة ٣١٠ وتاريخ الكامل لابن الاثير المتوفى سنة ٦٣٠ وتاريخ المسعودي المتوفى سنة ٣٤٦ وتاريخ ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ وكتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر لشيخ الرَّبوة المتوفى سنة ٧٢٧ وجغرافية ابي الفدا المتوفى سنة ٧٤٣ وجغرافية المقدسي ومسالك الممالك للاصطخري والمسالك والممالك لابن خرداذبه ومعجم البلدان لياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ وازهار الرياض في اخبار الدولتين لابي شامة المتوفى سنة ٦٦٥ وعيون الانباء في طبقات الاطباء لابن ابي أُصيبعة المتوفى سنة ٦٦٨ وتاريخ ابن خلِّكان المتوفى سنة ٦٨١ وذيلهُ لابن الكتبي المتوفى سنة ٧٦٤ وخلاصة الاثر في تراجم اهل القرن الحادي عشر للمحبي المتوفى سنة ١١١١ وسلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر للمرادي المتوفى سنة ١٢٣٢ وخلاصة تاريخ العرب للمستشرق سيديليو المولود سنة ١٨٠٨م وروضة المناظر لابن الشحنة المتوفى سنة ٨١٥ واخبار الدول للقرماني المتوفى سنة ١٠١٩ وتاريخ الخلفاء للسيوطي المتوفى سنة ٩١١ وتاريخ بغداد لعثمان بن سند البصري المتوفى سنة ١٢٥٠ وقطف الزهور ليوحنا ابكاريوس وتاريخ الدولة العلية العثمانية لمحمد فريد وتاريخ سورية لجرجي يني والروضة الغنَّاء لنعمان القساطلي والكامل للمبرِّد المتوفَّى سنة ٢٨٥ ورحلة ابن بطوطة المتوفى سنة ٧٧٧ وكتاب التعريف بالمصطلح الشريف للعمري المتوفى سنة ٧٤٩ وجهان نما لكاتب جلبي المتوفى سنة ١٠٦٧ ورحلة المستشرق فولني المتوفى سنة ١٨٢٠ وغيرها من الرحلات والتقاويم والكتب الجغرافية والتاريخية المطبوعة بالافرنسية والتركية

هذه هي مآخذي ولقائل ان يقول مالك وللتعنّي في تصفح كل هذه الصحائف من اجل وضع رسالة في تاريخ مدينة واحدة . ولو حقق لعلم ان هذا الاحتفال وان جلَّ لا يُعدُّ شيئًا في جانب ما يُقاسيهِ الغربيون من الامعان في التنقيب والتنقير وإغراق النظر في المبحث الصغير فضلاً عن الكبير . وكم من غربيٍّ صرف شطرًا من حياتهِ في تأليف كُتيِّب دون ان تعتريهُ ملة وسآمة وكم من شرقيٍّ بدأ في عمل فعاودهُ ما رُكز في طباع الشرقيين من قلة الثبات فوقف في منتصف الطريق وربما انقطع في اوَّلهِ وما ذاك الاَّ من انحلال الروابط وقلة الوسائط

ولعلَّ الناظر في هذا الوجيز يلاحظ معي ان سلسلة التاريخ انقطعت في اكثر القرون

خصوصاً في المتوسط منها فنازلاً وذلك لارتفاع العلم النافع من بين اظهرنا وعموم البلوى بالجهل المركب حتى زهد الناس في فن التاريخ وحسبوهُ اقاصيص خرافية أُلِّفت للمستضعفين وباليتهُ رائج بينهم رواج كتب المجون والاضاليل

كُتبت بعض تواريخ في هذه القرون لكن الغرض والعوض اعمیا اصحابها فلم يُدونوا الاَّ ما يرتضيهِ الكبراء ويُحظي بالزُّلفى ممن انتسبوا اليهِ . ومَنْ لنا بمؤرخ عالم عاقل كالجبرتي الذي ارَّخ حوادث مصر في اواخر القرن الثاني عشر واوائل القرن الثالث عشر نستقي من موردهِ فان الحال في سورية كانت سواء والقطر المصري ولكن اخبارهُ حُفظت وضاعت اخبارنا وما ذاك الاَّ لأن من تسمَّوا بالعلماء تجافوا مؤخراً عن خدمة هذا الفن بعد ان كان اساطين الرجال في غابر الزمن متولين امرهُ يقتطعون سُويعات من اوقاتهم العزيزة لينقلوا الاخبار مخافة ان تعبث بها الاغبار وتخفيها يد الاشرار من اجل ذلك خلَّف اكثرهم في فهارس مصنفاتهم تواريخ باعها المتأخرون منا بالمجَّان فغادرت ربوعنا غير آسفة اذ أحلها الاغيار محلَّ الاعتبار وامسينا نقرأُ في تراجم الاسلاف اسماء زهاء الف وخمسمائة كتاب سمي التاريخ ثم اذا عددنا ما في الايدي منها لا نراهُ يربو على الخمسين تاريخاً

هذا وقد ادمجتُ اثناء الكلام على عمران دمشق طرفاً من اخبار الدول التي تعاقبت على هذه الحاضرة لاني رأيتني مضطراً الى ذلك يقين انَّ حال البلاد متعلق بسياستها تعلق الارواح بالاشباح واغتفرت هذا الاستطراد لنفسي علماً بان من لا تروقهُ انباء عاصمة عظيمة قديمة يقرأُ على الاقلّ إجمالاً عن تاريخ الاسلام قد يتحصل منهُ على اثير يغنيهِ عن كثير

ولا اقول انني راعيت فيما كتبت الزمان والمكان بل اثبتُّ كل ما ينبغي لمؤرخ ان يذكرهُ واخترت في الاحايين التلميح بدل التصريح لجلاء الكلام على من يتدبر السياق والسباق . واعتمدت على التاريخ الهجري في اكثر الروايات اذ لم اطمح الى تغييرهِ كما اني لم أُغير التاريخ الميلادي . وجريت على اسلوب مؤرخي الفرنجة في تقسيمهم عمر العالم الى ثلاثة اقسام القرون القديمة والقرون المتوسطة والقرون الحديثة وبتدئي الاول منذ عُرف التاريخ الى سنة ٣٩٥م اباَّن انقسمت المملكة الرومانية الى شرقية عاصمتها القسطنطينية وغربية عاصمتها رومة ويوصلهُ بعضهم الى سنة ٤٧٦ حين انقرضت تلك المملكة بتاتاً. والقرون المتوسطة تبتدئ من انتهاء القرون القديمة الى ان فتح السلطان محمد الفاتح مدينة القسطنطينية سنة ١٤٥٣م و٨٥٧هـ والقرون الحديثة تبتدئ من استيلاء الفاتح على هذه العاصمة الى حدوث الثورة الفرنسوية سنة ١٧٨٩ وما بعد ذلك يُدعى بالتاريخ العصري

وتوخيت الاختصار ما امكن فجاءت هذه العجالة ما ترى لا ما يجب ان ترى والنية معقودة ان قُسح في الاجل ان اعيد فيها النظر ثانياً ازيد وانقص ريثما تم للنفس امنية تسعى الى ادراكها من التمحيص والتعديل. وعسى ان لا يكون نصيبي من ذلك نصيب من يحاول تطبيق القضايا العلمية على الاصول الدينية . ورجائي ان افوز باجر من يضمُّ الموزَّع ويلأم صَدْع المهزَّع وان يتفضل رصفائي في خدمة العلم بما يعنُّ لهم من الملاحظات مشفوعة بالتدقيق في الاستقراء لتقابل مني بالمنة والثناء

(١) عمران دمشق في القرون القديمة

بالطمع والجهل كثرت شرور البشر فبُدِّلت الارض غير الارض وبضدها استبجر عُمران وسعد انسان . قال اخذ علماء الافرنج كانت محبة الذات في ابان اعتدالها مبدأ سعادة وعنوان كمال فلما اصبحت عمياء مختلة استحالت سمًّا زعافاً وغدا الطمع وهو ابن الجهل واليفدُ داعياً الى الشرور كلها التي دمَّرت الارض

وما من قانون الهيّ او وضعيّ الاّ وعرَّف الخلق طرق الخير والشر ودلهم على حدائق الازهار ومتألف العوسج بَيْد انَّ الارض لا تعمر باسبابها الطبيعية ما لم تشفع بالصناعية فقد غصت بلادنا مثلاً بخصب دائم وماء دافق وريح طيبة وفصول معتدلة فما اغنت غناءها بجانب ما كانت تستند اليهِ في رُقيها من عدل وعلم فلما دالت دولتهما تنكر عمرانها وتفرَّق سكانها

بالطمع والجهل تداعت اسوار نينوى والجنان المعلقة ببابل وقصور تدمر ومعابد بعلبك وصروح القدس ودثرت اساطيل صور ومعامل صيداء وملاحة ارواد وآثار غزة وعسقلان وبصرى وجرش وعمّان وبادت الزهراء والحمراء وانقرضت الخضراء والشقراء وتقوّضت الحدباء والزوراء وادبرت الشهباء والفيحاء

بالطمع والجهل جرى ما جرى لتلك الحواضر ونقد ما تفاخر بهِ الارض من ناطق وصامت وعجماوات وجمادات وتعطلت هاتيك المرافئ التي طالما اقلعت منها سفن الفينيقيين واليهود وابحرت في شواطئ شبه جزيرة العرب ماخرةً العباب الى الخليج الفارسيّ والبحر الهنديّ لتقلّ من عمان والبحرين نواتج القارَّتين الاسيوية والافريقية من تبر وذهب وفضة ولؤلؤ واحجار كريمة وشال وعطور وبخور وصبر وعاج ومسك وعود وطواويس وقرود . ومن تلك الموانئ كانت تسير المراكب المصرية والسورية لتوزع اوساقها على سواحل البحر المتوسط على حين انك لا تسمع بمثل هذه الحركة التجارية اليوم الاّ في مراسي اوربا واميركا منها واليها ذاهبة جائية

لا جرم ان المتفلسف في طبائع الاكوان يعلق الاسباب على مسبباتها فاذا رأى عمرانًا بين امة حكم انهُ كان بعدل وحرية او وحدة دينية او وطنية او سيف وحكمة او حسن قيام على تجارة وزراعة وصناعة واذا شهد العكس نسبهُ الى سوء ادارة وفساد اخلاق او ظلم وشقاق او حروب متتابعة ودول متعاقبة وجدالات اهلية . وما كان ربك ليهلك القرى بظلم واهلها مصلحون

وبعدُ فقد كانت دمشق الفيحاء مصر الشام وامّ مدنها وعروس المشرق لوقوعها في مركز تنتهي اليهِ السيارة المشرقية الى الافق المغربي وقد عظم شأنها بين المدن الحافلة العريقة في القدم الباقية في لوح الوجود فروى تاريخ القرون المتوسطة عن عظمتها السالفة عجائب ما كان المرء ليخالها الاَّ مبالغًا فيها لو لم تشهد بها الآثار والاخبار. وبلَتْ كسائر الامصار الحلو والمرّ من صروف الدهر فنالت حظها من بهاء ورفعة وانحطاط وضعة وأرَبّت شقوتها على سعادتها فعدت ايامها السود كثيرة في جنب ايامها الغرّ المحجلة

واختلفت الروايات في سبب تسميتها واصل بانيها بحيث اتسع مجال القول للوضاعين والقصاصين واقوالهم في الباب متخالفة ولا اختلاف علماء الطبيعة في عمر الارض والصحيح الذي ينبغي ان يعوّل عليهِ انّ التاريخ القديم غامض للغاية اللهمّ الاَّ ما جاء من طريق معاصرينا من مؤرخي الفرنجة الذين يستدلون على الحوادث بآثار لا تقبل الانكار

ولقد قسم العارفون بايام الناس تاريخ دمشق الى ستة ادوار كما يقسم علماء الجيولوجيا طبقات الارض الى ستة اقسام في الغالب ايضًا فكانت مستقلة نحو ١٤٥٠ سنة وبسط البابليون والفرس ايديهم عليها ٤١٧ سنة وظلّت بها حكومة اليونان السلوقيين ٢٤٧ سنة وحكمها الرومان ٦٩٩ سنة وسادها العرب المسلمون ٤٤١ سنة وتملكها الاتراك العثمانيون منذ سنة ٩٢٢ هـ

وما من اثر يدلُّ على كيفية حكومتها ايام استقلالها وعمرانها في تلك العصور المظلمة . واذ سقطت مرارًا في ايدي اليهود صيّروها عاصمة سورية ولذا تكرر اسمها في سفر التكوين تحت اسم آرام وحكمها ملوك وردت اسماء بعضهم في التوراة لكن تصعب معرفة ازمانهم واحوالهم

ودخلت دمشق في حوزة ملك اشور سنة ٧٤٠ ق . م فقاست ما قاستهُ مملكة اشور من شقاء ونعماء ولم تكن هذه الحكومة في سورية مضرة بالتجارة والثروة مع ما عُرفت بهِ من القسوة والهمجية. وخضعت دمشق للفرس نحو ثلثمائة سنة ولما لم تكن حكومتهم تُحسن الاستعمار انحط عمرانها وظلّت نحو الف سنة تتسكّع في بيداء الصَّغار وتتردّى في مهاوي الدَّمار واقلُّ اعمال الفرس فيها كما في تاريخ سورية حمل اهلها على الجلاء الى بلاد مادي وسكنى الاشوريين فيها

ولما نشب القتال بين داريوس ملك الفرس وهو صاحب سورية اذ ذاك وبين الاسكندر المقدوني سنة ٣٣٣ ق . م تقهقر جيش داريوس وانهزم الى ما وراء الفرات فاستولى الاسكندر على سورية وفلسطين ونصب احد رجاله والياً على دمشق والبقاع ولم يرو التاريخ عن دمشق شيئاً على عهد هذا الفاتح العظيم وقد كانت البلاد تنقاد اليه عفواً صفواً وتمشي امورها زهواً رهواً حتى اذا هلك انقسمت مملكتهُ بين اربعة من قوادهِ فكانت سورية لسلوقس منذ عام ٣١٢ ق . م . وكانت الدولة السلوقية دولة حرب وشقاق فارتفع الامن في ظلها وفسد النظام واصبحت سورية باجمعها حوالي سنة ٨٧ ق . م على شفا جرف هارٍ من الاخطار اذ كانت رومية تطالبها ببسط نفوذها عليها ومصر تحاربها لتضمها اليها والفرس يجتاحون البلاد بأسهم وشدة مراسهم حتى قررت لهم السيادة الادبية عليها ولا تسل عما مُنيت بهِ البلاد اوائذٍ من ضعف الحال والرجال . ولاضطراب حبل المملكة السلوقية امتدت يد ملك ارمينية الى سورية وحكمها ١٤ عاماً الى ان جاءها الرومان سنة ٦٥ ق . م واستخلصوها منهُ . ويقول اغلب اهل السير من الافرنج ان الدولة الرومانية كفلت السوريين بالعدل فاحسنت كفالتهم مع ما كانت عليهِ في داخليتها من المشاغب والمتاعب حتى اذا شاخت دولتهم وغدا ملوكها لا يُنكرون الاَّ في نيل تاج الملك ولو مُلوِّثاً بزعفران الدماء وقصاراهم ان يعيشوا في قصورهم مترفين وفي شهواتهم منغمسين يخرسهم الحجاب وتتسرَّب الى خزائنهم اموال الجبايات انقلبت الحال الى اتعس مما كانت عليهِ من قبل . وبالنظر لتجافي هؤلاء الملوك عن التبصر في احوال رعاياهم كان اكثرهم يُقتلون غيلة بيد قُوادهم او جندهم او شعبهم فراراً من سوء ادارةٍ افقدت أُمتهم ومجاوريها الحرية والعدل . وعلى هذا امست دمشق بل قطرها في حمأٍ مسنون من الرق شأن كلّ مغلوب على امرهِ لا يعرف اهلها غير الذلة والمسكنة يُضاف اليهما ما يتأصل في اهل كلّ قُطر يتصبغ بصبغة الحكومة المتغلبة من مكر ونفاق وفساد في العادات والاخلاق

هذا طرف من حال الفيحاء قبل الاسلام وقد خضعت للرومان مدة استيلائهم على سورية وما دار في خلدها الانتقاض عليهم . واذ كانت انطاكية عاصمة البلاد لم تلحق دمشق شأوها في العظمة والشهرة بل تخلفت عما يؤهلها اليهِ مركزها الطبيعي وان تكن خلفت تدمر بعد سقوطها في عمران لم يبقَ منهُ الآن سوى احجارٍ مبعثرة ونواويس مكسرة تدلُّ مع هذا على ضخامة سلطانها واستيجار عمرانها واسماء رواها التاريخ فغابت عن العيان مسمياتها بتة كالبناء العجيب المسمى بالبريص وفيهِ يقول حسان

يسقونَ من ورد البريص عليهمِ بردى يصفق بالرحيق السلسلِ

وقال وعلة الجرمي

فما لحم الغراب لنا بزادٍ ولا سرطان انهار البريصِ

قال ياقوت وهذان البيتان يدلان على ان البريص اسم الغوطة باجمعها الا تراه نسب الانهار الى البريص وكذلك حسان فانهُ يقول يسقون ماء بردى وهو نهر دمشق من ورد البريص. على ان المسعودي يقول ان هذا البناء كان موجوداً في سنة ٣٣٢ هـ في وسط المدينة وكان يجري فيهِ الخمر في قديم الزمان وقد ذكرتهُ الشعراء في مدحها الملوك غسّان من مأرب وغيرهم

(٣) عمران دمشق في القرون المتوسطة

جاء المسلمون لفتح دمشق عام ١٤ هـ وكانت محتلة بحروب لم تنتهض بعد من عوارضها معتلة بامراض بادية للفاتح اعراضها وبعد حصار نازلها خالد بن الوليد من الباب الشرقي حتى افتتحها عنوة فاسرع اهل البلد الى ابي عبيدة بن الجراح ويزيد بن ابي سفيان وشرحبيل بن حسنة وكان كل واحدٍ منهم على ربع الجيش فسألوهم الامان فأمنوهم وفتحوا لهم الباب فدخل هؤلاء من ثلاثة ابواب ودخل خالد من الباب الشرقي بالقهر وملكوهم وكتبوا الى عمر بن الخطاب رضي الله عنهُ بخبر الفتح فاجراها كلها صلحاً

وهنا لا بأس بايراد طرف من احوال الدولة الاموية التي اتخذت هذه المدينة عاصمة جديدة للاسلام خصوصاً وانها كانت مبدأ دور ثانٍ لهذه الامة باحداثها اموراً اوجبت انقلاباً عظيماً اهمهُ تغيير وضع الامامة وبالاشارة الى طور الدور الاول يتجلى الفرق فاقول:

الاسلام جامعة عظمى لصالح الناس دعا اليها الرسول العربي عليهِ الصلاة والسلام فكان فيهِ هادياً ومعيناً فلما توفاهُ الله شعر رؤساء الامة بوجوب اقامة خليفة يخلفهُ في بث الدعوة وتوطيد الجامعة. وبعد خلاف نصبوا بالاتفاق اصلحهم لهذا الشأن ابا بكر الصديق اماماً وخليفة وهو في سيرتهِ المثلى على ما يعرفهُ من شمّ ريح التاريخ وكان من اجتهاده في حب المصلحة العامة ان انتخب خليفة يخلفهُ فعهد الى عمر بن الخطاب وهو على ما هو من التوفر على اعلاء الكلمة فقد لا يوجد جاهل بتلك السيرة العمرية

وعرف عمر ان نصب الامام من حقوق الجماعة فلم يغصبهم اياها حتى انهُ لما طعن قيل لهُ يا امير المؤمنين لو استخلفت فقال "لو كان ابو عبيدة حياً لاستخلفتهُ وقلت لربي ان سألني سمعت نبيك يقول انهُ امين هذه الامة ولو كان سالم مولى ابي حذيفة حياً لاستخلفتهُ وقلت لربي ان سألني سمعت نبيك يقول ان سالماً شديد الحب لله تعالى". الى ان قال "عليكم هؤلاء الرهط وهم عليٌّ بن ابي طالب وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن ابي وقاص

والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله فليختاروا منهم رجلاً " الى آخر ما تواتر في قصة الشورى

ولما انتخب رؤساء الصحابة عثمان بن عفان تطاول بنو امية الى غرض كان يحيك في صدورهم واعني به الرئاسة العظمى على المسلمين كافة وذلك لانهم راجعوا تاريخهم فعلموا انهم كانوا في جاهليتهم رؤساء وحب الرئاسة كما يعهده علماء الاخلاق خلة ينزع اليها كل من كان له قديم يرجع اليه وتنمو جرثومتها في الناشئين في مهادها حتى اذا اضاء لهم برق مشوا في سبيلها حثيثاً شأن الأمويين في خلافة عثمان فانهم ظنوا الامر امرهم لا امر الامة وطمعوا في الولايات والاعطيات حتى نقم عليهم من نقم وكان من التألب على عثمان ما اشتهر امره وبقتله انفرجت على المسلمين ثغرة ما سُدَّت ولن تُسدّ

ولما ولي الشام معاوية بن ابي سفيان مقدَّم بني امية اتخذ دمشق قاعدة لامارته لاسباب منها انها كانت متوسطة بين البلاد غزيرة الخيرات للجند ملائمة لابهة الملك وعظمة السلطان . ثم اخذ في تسخيرها لامره وتمهيدها لذريته وتربية اهلها على الطاعة للرؤساء والاستسلام للامراء حشدها باهل عصبيته واستمال قلوب جند الشام وهم العرب المعنيون بقول المؤرخين اهل الشام لا اهلها الاصليون من الروم فان هؤلاء ما كان لهم في المسألة ناقة ولا جمل . وعلى اثر ذلك قام معاوية يطالب بدم الخليفة الثالث فكان ما كان من امر وقعتي الجمل وصفين وقيام الخوارج ونشتت الكلمة بتلك العصبيات على نحو ما رواه الطبري وابن الاثير وغيرهما من المؤرخين المعتدلين

ومن البديهي ان الحضارة بنت الترف والترف ابن الغنى والغنى من طبيعة الملك وملك بني أمية كان يمتد من اقاصي جبال حملايا في الشرق الى ادافي جبال الألب وسط فرنسا في الغرب وحضارتهم كانت نسخة منقولة عن الفرس والروم لان الحضارة تنتقل في الغالب من الدول السالفة الى الدول الخالفة . وقد طفح التاريخ بادلة تُثبت انغماس بني امية في الترف انغماساً لم يعهده العرب الفاتحون

سار عمر بن الخطاب الى الشام اربع مرات الاولى على فرس والثانية على بعير والثالثة على بغل والرابعة على حمار يخرج معاوية للقائه وشارات الأبهة تحفُّه وترفُّه فلما تقابلا تأثر عمر من هذا البذخ ونظر شزراً الى معاوية قائلاً اكسروية يا معاوية . وفي رواية ابن عبد ربه عن يزيد عن ابيه قال إن عمر بن الخطاب لما قدم الشام ومعه عبد الرحمن بن عوف تلقاهما معاوية في موكب ثقيل فجاوز عمر حتى أُخبر فرجع اليه فلما قرب منه نزل اليه فاعرض عمر عنه فجعل يمشي الى جنبه راجلاً فقال له عبد الرحمن بن عوف اتعبتَ الرجل فاقبل عليه عمر فقال يامعاوية انت صاحب الموكب آنفاً مع ما بلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك. قال نعم يا امير المؤمنين.

قال ولمَ ذاك قال لاننا في بلد لا نمتنع فيهِ من جواسيس العدوّ ولا بدَّ لهم مما يُرهبهم من هيبة السلطان فان امرتني بذلك اقمتُ عليهِ وان نهيتني عنهُ انتهيتُ فقال لئن كان الذي تقولهُ حقًّا فانهُ رأي اريب وان كان باطلاً فانها خدعة اديب وما آمرك بهِ ولا انهاك عنهُ

وذكر المُبرِّد ان معاوية قدم على عُمَر بن الخطاب من الشام وهو أبيضُ الناس فضرب عُمَر بيدهِ على عضدهِ فاقلع عن مثل الشراب او مثل الشراك فقال هذا والله لتشاغلك بالحمامات وذوو الحاجات تُقطع انفسهم حسرات على بابك . وروى ابن الاثير ان عُمر لما قدم الجابية من قرى دمشق وهي ناحية بالجولان كان اول من لقيهُ يزيد وابو عبيدة ثم خالد عليهم الديباج والحرير فنزل واخذ الحجارة ورماهم بها وقال ما اسرع ما رجعتم عن رأيكم اياي تستقبلون في هذا الزيّ وانما شبعتم منذ سنين وبالله لو فعلتم هذا على رأس المائتين لاستبدلتُ بكم غيركم. فقالوا يا امير المؤمنين انها يلامعة وان علينا السلاح قال فنعم اذن وركب حتى دخل الجابية وعمر وشرحبيل كانهما لم يتحركا

هكذا كان الخلفاء الراشدون يعاملون عُمَّالهم ليربأوا بهم عن موارد الترف والسرف في حين كانوا باول النشوء وصدر الفتح. ومن المسلَّم ان معاوية كان من السياسة والحلم على جانب واجمع ثقات المؤرخين على انهُ ما فتئ يستميل رجالات قريش اليهِ منذ جرى في شغاف قلبهِ حب الإمارة وقوي فيه عرق الامل بنيلها . وممن مالأهُ على تحقيق رغائبهِ عمرو بن العاص قريبهُ وعاملهُ على مصر والمغيرة بن شعبة عاملهُ على الكوفة وهما الداهيتان اللذان يقول فيهما الحسن البصري — كما في السيوطي — انهما افسدا امر هذه الامة لاحتيال الاول برفع المصاحف يوم صفّين وتقرير التحكيم ولأن الثاني كان من الدّاعين لاخذ البيعة ليزيد فاوعز معاوية سرًّا الى ولاة الامصار ان يوفدوا الوفود اليهِ يزيّنون لهُ اعطاء العهد لابنهِ حتى استوثق لهُ اكثر الناس وبايعوهُ والسيوف مُصلتة على رقاب كبار الصحابة وقت اخذ البيعة كيلا ينبسوا بحلوة ولا مُرّة فتسلسل الملك في اعقابهِ سُنَّة قيصر وكسرى بل كما قال عبد الرحمن بن ابي بكر سنة هرقل كلما مات هرقل قام هرقل

ولما قُضي على اهل الشام ان يكونوا بعدُ جيشَ بني أُميّة الخاص يقاتلون بهِ من يناوئهم في العاصية والدانية لم يكن نصيب بلادهم من العمران كنصيبهم من خدمة الاغراض . ومن جملة وصايا معاوية ليزيد قولهُ انظر اهل الشام فليكونوا بطانتك ورعيتك فان رابك من عدوّك شيء فانتصر بهم فاذا اصبتهم فاردد اهل الشام الى بلادهم فانهم ان اقاموا بغير بلادهم تغيرت اخلاقهم

لاجرم ان ملك بني أُمية على الجدّ في قطع شأفة الخارجين عليهِ لم يدم سوى احدى وتسعين سنة وتسعة اشهر او الف ومئة شهر تعاقب عليهِ اربعة عشر ملكاً كلهم متشابهون في مسلكهم الاَّ قليلاً دَعْ عنك افضلهم واعقلهم واعدلهم عمر بن عبد العزيز فانهُ لما شرع يتمكن من هدم ما بني من القواعد ليقوم باصلاح حقيقي دسَّ اليهِ بعض أُسرتهِ من سقاهُ السم فذهب حميد الاثر ولم يلِ الخلافة سوى ٢٩ شهراً

تبين مما تقدم ان الدولة الأُموية لم تتفرغ للعمران لانصراف وجهتها الى الفتوح وبث الدعوة وكبح جماح الخوارج والقدرية والازارقة والصفرية وغيرهم ممن

مضوا قتلاً وتمزيقاً وصلباً تحوم عليهم طيرٌ وقوعُ

قال احد حكماء السياسة لا سلطان الاَّ بالرجال ولا رجال الاَّ بمال ولا مال الاَّ بعمارة ولا عمارة الاَّ بعدل فعمران هذه الحاضرة على عهد تلك الدولة فضلاً عن انهُ نُقل عمن قبلهم نقلاً اعتورهُ القلب والابدال لم يكن في الدرجة التي يزعمها بعضهم اللهمَّ الاَّ ما كان من تصورهم ومصايفهم في الضاحية التي يتعذَّر الآن تحديد مراكزها لان بني العباس لما اخذوا الملك من بني أُمية هدّوا قصورهم كما نبشوا قبورهم

وقد انبثت قصور الامويين بجوار جامعهم الذي بناهُ الوليد بن عبد الملك ذاك المولع بتشييد القصور المنجَّدة والصروح الممرَّدة وهو صاحب البلاط الغريب . اما الخضراء وهي بلاط معاوية فقد كانت في الحيّ المعروف اليوم بمصبغة الخضراء من احقر احياء المدينة تكون عن شمال الداخل الى الجامع من باب جيرون اي الباب الشرقي المسمى اليوم بباب النوفرة لوجود فوَّارة بقربهِ منذ مئات من السنين يؤيد ذلك ما رواهُ المبرَّد في كاملهِ من ابيات في بنت معاوية قال في مطلعها

صاح حيّا الالهُ اهلاً ودارًا عند اصل القناة من جيرونِ

عن يساري اذا دخلت من البا ب وان كنت خارجاً فيميني .

وذكر ابن خلكان ان دار سليمان بن عبد الملك كانت موضع سقاية جيرون وذكر القرماني ان عمر بن عبد العزيز لم يسكن في دار الخلافة بباب الخضراء وسكن شمالي جامع دمشق بمكان يعرف اليوم بخانقاه الشميصاتية وقال ايضاً كانت دار هشام بن عبد الملك عند سوق الخواصين مكان تربة نور الدين الشهيد وقيل في الكلاسة . وروى ابن عساكر ان دار مسلمة بن هشام وكانت معروفة بدار اماجور متصلة بالجامع من ناحية باب البريد ملاصقة دار ابي الدرداء

(ستأتي البقية) محمد كرد علي